تفسير القرآن الكريم

لفضيلة الشيخ عبد الحكيم بن حسن ناصري -حفظه الله-

تفريغ المجلس (٠٠٢) [تتمة المقدمة - تفسير الاستعاذة]

بسم الله الرحمن الرحيم

قال شيخنا عبد الحكيم بن حسن ناصري –حفظه الله ونصره–:

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله، أما بعد:

[تعريف التفسير لغة والفرق بين السّفر والفسر]

نبدأ اليوم –إن شاء الله– المجلس الثاني من مجالس "تفسير القرآن الكريم"، وأصل هذه الكلمة (التفسير) مأخوذ من (الفَسر) وهو البيان والإيضاح، وكلمة الفسر، تشترك مع كلمة السَّفر في حروفها، وهي تقاربها في اللفظ وتقاربها في المعنى، إلا أن الفرق بينهما –بين (السّفر) وبين (الفسر)– هو أن الفسر يستعمل في الكشف عن المعاني المعقولة، والسفر يستعمل في الكشف عن الأمور الحسية، فإذا أردت أن تشرع الأمور المعقولة، والأمور المعنوية تقول: أفسّرها، ومن ذلك قول الله ﷻ ﴿وَلَا يَأۡتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ وَأَحۡسَنَ تَفۡسِيرًا ۝٣٣﴾الفرقان، يعني أحسن بيانا وتفصيلا، وأما السّفر فهذا يستعمل في كشف ما هو خفي من الأمور

الحسية، فيقال (سفرت المرأة عن وجهها) إذا كشفت وجهها، ويقال (أسفر الصبح) إذا طلع فكشف ما كان مغطى بالظلام، هذا المعنى اللغوي لكلمة (الفسر) أو (التفسير)، التفسير في اللغة كشف ما هو مغطى، وهو البيان، والتفصيل.

[تعريف علم التفسير اصطلاحا]

وأما التفسير في اصطلاح العلماء، فإن طائفة من أهل العلم قالوا بأن **التفسير ليس من العلوم التي يتكلف لها حد وتعريف**، لا نحتاج إلى أن نعرف علم التفسير، وإنما يكفي أن نقول: إنه **بيان لكلام الله** ﷻ، لكن أكثر العلماء وضعوا لعلم التفسير حدا، وتنوعت عباراتهم في ذلك، ونحن يكفينا أن نأخذ تعريفا واحدا، وهو الذي ارتضاه الإمام الزركشي في كتابه في علوم القرآن حيث عرف علم التفسير فقال (**هو علم يفهم به كلام الله المنزل على محمد** ﷺ **وبيان معانيه، واستخراج أحكامه وحِكمه**) هذا هو التعريف، يمكن أن يعتمد عليه الطالب، يعتمد على تعريف واحد، لأن التعاريف الأخرى وإن خالفت هذا التعريف في اللفظ إلا أنها تتفق معه في المعنى، فهي بمعنى واحد، وهي اختلاف تنوع فقط، هذه كلمة التفسير.

[تعريف القرآن لغة]

أما القرآن، فكلمة (القرآن) في اللغة تطلق بمعنى: التلاوة، وتطلق بمعنى الجمع، فالقرآن هو مصدر (تلا) أو مصدر (جمَع) كما تقول (غفَرَ، غفْرا وغفُرانا) كذلك تقول (قرأَ قرْأ وقرآنا).

١= فعلى المعنى الأول إذا قلنا بأن القرآن هو التلاوة، يكون قولنا القرآن هو مصدر بمعنى اسم المفعول أي هو المتلو المقروء، إذا كان نعرف القرآن هنا على أنه بمعنى التلاوة.

٢= أما إذا قلنا إنه بمعنى (الجمع) فحينئذ يصلح للأمرين، يصلح لأن يكون مصدرا بمعنى اسم الفاعل، أو مصدرا بمعنى اسم المفعول، اسم الفاعل تقول (القرآن) بمعنى الجامع، لأن القرآن جامع للأحكام والأخبار، ويصح أيضا أن تقول: إنه بمعنى اسم المفعول فنقول هو مجموع، لأن القرآن فعلا مجموع في الصدور بالحفظ، ومجموع في السطور -المصاحف-، إذن كلمة القرآن في اللغة تطلق ويراد بها التلاوة، ومن ذلك قوله ﷻ ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾﴾ القيامة، ويطلق ويراد به الجمع لأن كلمة القرء تطلق في اللغة بمعنى الجمع.

[تعريف القرآن في الشرع]

أما في الشرع فالقرآن هو (**كلام الله المعجز المنزل على محمد** ﷺ **المنقول بالتواتر المتعبد بتلاوته**) هذا هو تعريف القرآن، (**هو كلام الله تعالى**) فيخرج بذلك كلام غيره من المخلوقات، كلام البشر، وكلام الجن، وكلام الملائكة وغيرهم، كله يخرج، (**المنزل على محمد** ﷺ) يخرج بذلك الكتب التي أنزلت على الأنبياء السابقين، (المعجز) يخرج بذلك الكلام غير المعجز، ومن ذلك حديث النبي ﷺ لأنه لم يقع التحدي به، (**المنقول بالتواتر**) يخرج بذلك ما نقل من القرآن عن طريق الآحاد، (**المتعبد بتلاوته**) يخرج بذلك الأحاديث القدسية، وإن كان هي قد تخرج قبل ذلك عند قولنا (**المعجز**) فهي ليست معجزة، ولم يقع التحدي بها، لكن على فرض بقائها في الحد فإنها تخرج بقولنا (**المتعبد بتلاوته**) لأننا متعبدون في صلواتنا بتلاوة القرآن فقط، فلا يصح قراءة الأحاديث القدسية ولا أحاديث النبي ﷺ في الصلاة، هذا هو تعريف القرآن.

[أسماء وأوصاف القرآن الكريم وأول نزوله]

القرآن الكريم سماه الله ﷻ في كتابه بأسماء كثيرة، وأوصاف أكثر، يزيد عددها على الخمسين ما بين اسم ووصف ومن أشهر أسمائه القرآن، والفرقان، والكتاب، والتنزيل، والذكر، هذه أشهر أسماء القرآن الكريم.

وأما أوصافه فكثيرة جدا، فهو الصراط المستقيم، وهو حبل الله المتين، وهو النور، والشفاء، والهدى، وهو المبارك، وهو المجيد، وهو العزيز، وهو الحكيم، وغيرها من الأوصاف التي وصف الله بها كتابه العظيم.

أنزل الله سبحانه وتعالى القرآن الكريم أول ما أنزله في ليلة القدر، في شهر رمضان، كما قال تعالى ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةِ ٱلۡقَدۡرِ ١﴾ القدر، وقال في آية أخرى ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةٖ مُّبَٰرَكَةٍۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ٣ فِيهَا يُفۡرَقُ كُلُّ أَمۡرٍ حَكِيمٍ ٤﴾ الدخان، وقال سبحانه وتعالى ﴿شَهۡرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ هُدٗى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٖ مِّنَ ٱلۡهُدَىٰ وَٱلۡفُرۡقَانِۚ ...١٨٥﴾ البقرة، فأول نزول القرآن كان في ليلة القدر في شهر رمضان، نزل به جبريل عليه السلام كما قال سبحانه وتعالى ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٩٢ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ ١٩٣ عَلَىٰ قَلۡبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ ١٩٤ بِلِسَانٍ عَرَبِيّٖ مُّبِينٖ ١٩٥﴾ الشعراء، ﴿قُلۡ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلۡقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلۡحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهُدٗى وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُسۡلِمِينَ ١٠٢﴾ النحل، فالله سبحانه وتعالى نزل القرآن في هذه الليلة المباركة، والذي نزل به وكان رسولا بين رب العالمين وبين محمد ﷺ هو الرسول الملكي وهو جبريل عليه السلام، نزل بالقرآن على قلب محمد ﷺ في هذه الليلة العظيمة المباركة.

الآيات الأولى التي نزل بها جبريل عليه السلام هي الآيات الخمس الأولى من سورة العلق، وهي قول الله سبحانه وتعالى ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ٢ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ٣ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ٤ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ ٥﴾ العلق١-٥، وكان النبي ﷺ عمره إذ ذاك أربعين سنة على القول المشهور، نزلت عليه هذه الآيات في غار حراء، ثم فتر الوحي يعني انقطع الوحي مدة.

ثم بعد ذلك نزل قوله تعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ١ قُمۡ فَأَنذِرۡ ٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرۡ ٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرۡ ٤ وَٱلرُّجۡزَ فَٱهۡجُرۡ ٥﴾المدثر، وقد جاء في الصحيحين من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ومن حديث جابر رضي الله عنه تقديم سورة العلق على سورة المدثر، وهذا هو الصحيح، ثم بعد ذلك تتابع نزول القرآن الكريم بحسب الوقائع والأحداث.

نزل هذا القرآن في هذه المدة، مدة ثلاث وعشرين سنة، منذ بعثة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى وفاته، والقرآن ينزل منجما يعني مفرقا بحسب الوقائع والأحداث، وكان الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ في ذلك الوقت عند نزول القرآن الكريم كانوا يجمعونه.

[الجمع الأول للقرآن الكريم]

والجمع في ذلك الوقت في عهده صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يطلقه العلماء على معنيين:

١= الجمع بمعنى الحفظ، ومنه يقال لحفاظ القرآن جُمّاع القرآن، وبهذا المعنى جاءت الآية في سورة القيامة ﴿إِنَّ عَلَيۡنَا جَمۡعَهُۥ وَقُرۡءَانَهُۥ ١٧ فَإِذَا قَرَأۡنَٰهُ فَٱتَّبِعۡ قُرۡءَانَهُۥ ١٨﴾القيامة، وكان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يتعجل حفظ القرآن، فإذا نزلت آيات من القرآن الكريم، تعجل في حفظها، وكان يحث الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ على حفظ كتاب الله تعالى، وكان يختار لهم من يعلمهم القرآن الكريم، ويحفظكم كتاب الله، وقد حفظ عدد كثير من الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ في عهد النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كما ذكر ذلك أبو عبيد في كتابه "القراءات"، وكذلك الذهبي في كتابه "طبقات الحفاظ" وغيرهما من العلماء، ذكروا أن عددا كثيرا من الصحابة حفظوا القرآن في عهد النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.. هذا الجمع الذي كان في عهده صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بمعنى الحفظ.

٢= وكان الجمع أيضا يطلق بمعنى الكتابة، فكان القرآن يكتب في عهد النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وقد اختار صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كتابا للوحي، منهم علي بن أبي طالب، وزيد بن ثابت، وأبي بن كعب، ومعاوية بن أبي سفيان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ هؤلاء كانوا

كتابا للوحي، لأنهم يحسنون القراءة والكتابة، إلا أن كتاباتهم لم تكن في مصحف واحد، كانت متفرقة، فتجد عند هذا ما لا تجد عند الآخر، وبعض الصحابة كان يكتب ابتداء من تلقاء نفسه دون أن يأمره النبي ﷺ وبعضهم يحفظ، ثم يعرضون ما لديهم على رسول الله ﷺ حفظا وكتابا.

والنبي ﷺ لم يكتب القرآن في مصحف واحد، لأنه كان يترقب نزول الوحي، كان الوحي لا يزال ينزل، فكان يترقب نزول ناسخ لبعض الأحكام، أو لبعض التلاوات، هناك تلاوة وألفاظ رُفعت، كانت تُقرأ مما يقرأ من القرآن ثم نسخت، وهناك أحكام أيضا نسخت، فكان ﷺ يترقب ذلك، ولهذا لم يجمع القرآن في كتاب واحد، وإنما كان ابتداء ذلك في عهد الصديق أبي بكر ﵁ بمشورة عمر بن الخطاب ﵁.

هذا الجمع الذي كان في عهد النبي ﷺ لحفظ القرآن وكتابته، هذا يسمى عند العلماء (الجمع الأول)، عندهم الجمع الأول، والجمع الثاني، والجمع الأخير، الجمع الأول كان في عهده ﷺ.

[الجمع الثاني للقرآن الكريم]

الجمع الثاني كان في خلافة أبي بكر ﵁ وذلك بعد غزوة أهل اليمامة، لما ارتد أهل اليمامة، قاتلهم أبو بكر ﵁ بموافقة كل الصحابة ﵃ فاستشهد في تلك الغزوة سبعون قارئا من الصحابة، والقارئ قديما في عهد السلف، إذا قيل: فلان قارئ أي أنه عالم، يحفظ كتاب الله ﷻ ويفهم معناه، وهو من علماء الشريعة، فاستشهد سبعون قارئا من أصحاب النبي ﷺ.

فجاء عمر ﵁ إلى أبي بكر، وقال له: إن القتل قد استحر في القراء، يعني كثر القتل في القراء، قال: لو بقي الأمر هكذا لذهب القرآن، يعني في كل معركة يموت مثل هذا العدد من الحفاظ سيضيع القرآن، فأشار على أبي بكر أن يجمع القرآن في كتاب واحد، وهذا هو في الواقع تحقيق لقول الله ﷾ ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ

وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾ الحجر، فالله ﷻ أخبرنا بأنه سيحفظ القرآن، وهذا خبر يتضمن الأمر، كأنه يقول لنا: احفظوا القرآن، في صدوركم وفي كتبكم.

فلما عرض عمر ﷺ على أبي بكر جمع القرآن في مصحف واحد، كبُر على أبي بكر أن يفعل شيئًا لم يفعله النبي ﷺ وأبى، ونفر من هذا نفورا شديدا، لكن عمر ﷺ كان يراجعه في كل مرة، حتى شرح الله صدر أبي بكر لجمع القرآن، فدعا زيد بن ثابت الذي كان كاتبا للوحي في عهد النبي ﷺ، دعاه وطلب منه وأمر أن يجمع القرآن في مصحف واحد، فكبر على زيد ﷺ أن يفعل شيئًا لم يفعله النبي ﷺ، وقال (**لو كلفوني بحمل جبل لكان أهون علي من جمع المصحف**)، لأنها مهمة شاقة خطيرة، فهو خشي أن يقوم بهذا، ولا يزال أبو بكر وعمر يراجعانه، حتى طابت نفسه وشرح الله صدره لجمع القرآن، فشرع في جمعه مع ثلة من خيرة أصحاب النبي ﷺ.

فجمعوا القرآن الكريم في كتاب واحد، وهذا هو الجمع الثاني للقرآن الكريم، بقي هذا المصحف عند أبي بكر، فلما توفي انتقل إلى عمر ﷺ ولما توفي عمر انتقل إلى ابنته حفصة رضي الله عنها فبقي عندها هذا المصحف حتى طلبه منها عثمان بن عفان ﷺ.

[الجمع الأخير للقرآن الكريم]

وهنا تأتي المرحلة الثالثة في جمع القرآن وهي المرحلة الأخيرة، هذه المرحلة كانت في خلافة عثمان ﷺ لما كثرت الفتوحات الإسلامية، تفرق القراء في الأمصار، بعضهم ذهب إلى الشام، وبعضهم إلى العراق، وبعضهم إلى المغرب، ومصر، تفرق القراء وكان كل واحد منهم يقرأ بما سمع من النبي ﷺ، وأنتم تعلمون بأن القرآن أنزل بسبعة أحرف، تيسيرا على هذه الأمة، لأنها أمة أمية، حتى لا يشق عليها قراءة القرآن بحرف واحد يسر

الله عليهم بأن يقرؤوا القرآن على سبعة أحرف، الأحرف السبعة تختلف في الألفاظ فقط، وإلا فالمعنى واحد، لهجات -مثلا تقول- تعال، أقبل، هلم، كلها بمعنى واحد، لكن جاءت في حرف من أحرف القرآن هلمّ، وفي حرف آخر بدل هلمّ تعال، وفي الحرف الثالث أقبل، وكل قبيلة تتكلم بهذه الحروف التي اعتادت عليها، فلو طلب منهم بأن يقرؤوا بحرف آخر لشق عليهم، فمن باب التيسير نزل القرآن على سبعة أحرف.

فكانوا يقرؤون بهذه القراءات، وكان فيهم الأعاجم، وحديثوا العهد بالإسلام، كانوا يقرؤون القرآن فإذا جمعهم مجلس، اجتمع أهل مصر مع أهل الشام، مع أهل العراق، اختلفوا في وجوه القراءات، هذا يقرأ بحرف، وهذا يقرأ بحرف آخر، وهذا كان في عهد النبي ﷺ لما جاء عمر رضي الله عنه برجلين يقرآن بقراءتين مختلفتين، قال (كلاكما محسن) لأن هذا قرأ بحرف، وهذا قرأ بحرف، لكن هؤلاء كانوا لا يعلمون هذا، لم يكونوا بمنزلة الصحابة، كانوا إذا قرؤوا اختلفوا، ويصل الأمر بهم إلى حد اللجاج والخصومة والتأثيم، فيؤثم بعضهم بعضا.

ثم في غزوة أرمينية، هنا تنبه أحد الصحابة رضي الله عنه وهو حذيفة بن اليمان، شارك في غزوة أرمينية، وغزوة أذربيجان من أهل العراق، كان من جملة من غزا وشارك في هتين الغزوتين، رأى اختلافا كثيرا بين المسلمين في وجوه القراءات، ورأى هذا التشاحن، وكل واحد يتمسك برأيه، مع ما يشوب تلك القراءة من اللحن، لما رأى هذا الأمر، وهذا الاختلاف الشديد، وبعضهم يؤثم البعض الآخر، بل وصل إلى حد التكفير، فزع إلى عثمان رضي الله عنه وهو الخليفة، فقال له (**يا أمير المؤمنين أدرك هذه الأمة قبل أن تختلف في كتاب ربها**).

فجمع عثمان رضي الله عنه من كان معه من الصحابة، واستشارهم فأشاروا عليه بما انتهى إليه الأمر، وهو أن يجمعوا الناس على كتاب واحد، وعلى حرف واحد، كيف يكون ذلك؟ قالوا: بالكتاب الذي كتبه أبو بكر رضي الله عنه لأن أبا بكر كتبه بحضور أصحاب النبي ﷺ، تقريبا كل الصحابة كانوا أحياء في تلك الفترة، وكان بإجماعهم.

فجمعوا ذلك المصحف ولما كانت خلافة عثمان ﷺ وأراد أن يجمع الناس على كتاب واحد، طلب من حفصة رضي الله عنها أن ترسل إليه كتاب أبي بكر الذي جمعه في عهده، وأمر الكتاب ومنهم زيد بن ثابت نفسهم، أن ينسخوا نسخا من القرآن الكريم، وأن يرسلوها إلى الأنصار، وأن يحرقوا سائر الكتب، فلا يبقى إلا هذا الكتاب الإمام، ولذلك سمي المصحف الذي كتبه عثمان ﷺ بإجماع من الصحابة، وموافقة من الصحابة، سمي هذا الكتاب بالإمام، وسمي أيضا بالمصحف العثماني، نسبة إلى عثمان ﷺ.

فنسخوا منه عددا من النسخ وأرسلوها إلى الأمصار، نسخة إلى المغرب، ونسخة إلى الشام، ونسخة إلى مصر، ونسخة إلى أهل المدينة . . .الخ، وبذلك قطع عثمان ﷺ دابر الفتنة، وحسم مادة الخلاف، وحفظ كتاب الله ﷻ من التغيير ومن التحريف والتبديل، والصحابة كلهم وافقوا على هذا، إلا ابن مسعود ﷺ فإنه خالف ثم وافق الجماعة، في أول الأمر خالف، ثم فيما بعد رأى أن الصواب مع ما صنعه عثمان ﷺ فدخل ووافق الجماعة، هذا فيما يتعلق بجمع القرآن الكريم.

والكتاب الموجود الآن بيننا إنما هو نسخة من المصحف الإمام الذي كتبه عثمان ﷺ، هذا الكتاب الموجود الآن هو المصحف العثماني، وهو الذي اتفقت عليه الأمة من عهد أبي بكر ﷺ إلى يومنا هذا.

القرآن الكريم نقل إلينا بالتواتر، والتواتر هو أن يتفق جمع من العلماء على نقل شيء -ككلام وأخبار وقصص- إلى جمع مثلهم يستحيل تواطؤهم على الكذب، القرآن نقل إلينا بالتواتر، نقله إلينا عشرات الصحابة، إلى مئات التابعين، إلى آلاف أتباع التابعين، ثم إلى عشرات الآلاف، إلى وصل إلينا، فهو منقول بالتواتر لا يمكن الطعن فيه أبدا، هذا القرآن الكريم منقول بالتواتر وهو أصح كتاب على وجه الأرض، فليس هناك كتاب نقل بالتواتر كما نقل القرآن الكريم.

[الاستعاذة]

بين الحين والآخر -بعد هذه المقدمة- نتكلم بالمسائل المتعلقة بعلوم القرآن، بحسب المناسبات، ندخل الآن إن شاء الله في التفسير، وأول ما نبدأ به في تفسير القرآن الكريم هو الاستعاذة، فكل قارئ للقرآن يستفتح قراءته بالاستعانة بالله من الشيطان الرجيم.

علمنا ربنا ﷻ في القرآن الكريم كيف نتعامل مع نوعين من الأعداء، النوع الأول هو العدو الإنسي، الذي هو من جنسك، والنوع الثاني هو العدو الشيطاني، وهو من غير جنسك، كيف نتعامل مع العدوين -العدو الإنسي، والعدو الشيطاني-؟

[التعامل مع العدو الإنسي، والشيطاني]

ذكر الله ﷻ كيفية التعامل معهما في سياق واحد في ثلاثة مواضع من القرآن الكريم:

١= الآية الأولى، يقول الله ﷻ ﴿خُذِ ٱلۡعَفۡوَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡعُرۡفِ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡجَٰهِلِينَ ١٩٩﴾الأعراف، هذا مع العدو الإنسي، ثم يقول بعدها مباشرة ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ نَزۡغٞ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ٢٠٠﴾ الأعراف، في سياق واحد كيف نتعامل مع العدو الإنسي ثم كيف نتعامل مع العدو الشيطاني.

٢= الآية الثانية، يقول الله تعالى ﴿ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ ٱلسَّيِّئَةَۚ نَحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ٩٦﴾المؤمنون، هذا العدو الإنسي، ﴿وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنۡ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ ٩٧ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحۡضُرُونِ ٩٨﴾المؤمنون، هذا العدو الشيطاني.

٣= الآية الثالثة، يقول الله تعالى ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾فصلت، انظر كيف تتعامل مع الإنسي، ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٣٦﴾﴾فصلت.

فذكر في هذه المواضع الثلاثة التي لا رابع لها في القرآن، ذكر العدو الإنسي والعدو الشيطاني، وأمرنا بمصانعة العدو الإنسي، والإحسان إليه، لأن الإنسان طيب الأصل، فالإحسان إليه كفيل بردّه إلى أصله، فمداراة العدو الإنسي والإحسان إليه، ومصانعته تفيد وتثمر، ولهذا أمرنا الله بها، فأمرنا أن نبدأ أولا مع العدو الإنسي بهذه المعاملة الحسنة، ندفعه بالتي هي أحسن، تعامله معاملة طيبة، فينقلب من كونه عدوا لك إلى أن يكون وليا حميما، لكن لمّا كان العدو الشيطاني خبيث الطبع، لا تنفع معه مصانعة ولا إحسان ولا مداراة لشدة عداوته لآدم وذريته، فإن الله ﷻ أمرنا أن نستعيذ به تعالى من هذا الشيطان.

الشيطان عنده عداوة شديدة لابن آدم، كما قال تعالى ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿٦﴾﴾فاطر، وقال تعالى حكاية على لسان موسى أنه قال ﴿...إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾﴾القصص، فأول عدو لك في هذه الدنيا هو الشيطان قبل اليهود وقبل النصارى . .الخ، أول عداوة لك عداوتك للشيطان، ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا..﴿٦﴾﴾فاطر، فهو يبدأ عداوته للإنسان من اللحظة التي يولد فيها .

أول ما يخرج الإنسان إلى هذه الدنيا يخرج باكيا، ما الذي أبكاه؟ وخزة الشيطان، يخزه الشيطان إعلانا منه للعداوة، بمجرد أن تخرج للدنيا، يبادرك بالعداء، وسيبقى كذلك إلى أن تخرج روحك من جسدك، ولهذا

أمرنا الله ﷻ أن نتعامل معه بمعاملة أخرى، هذا عدو مضل مبين، ثم هو عدو خفي، لا يمكن دفعه باليد، ولهذا فالمؤمن يلجأ إلى الله تبارك وتعالى، ويستعيذ بالله.

[معنى الاستعاذة وبيان موضعها]

ما معنى يستعيذ؟ -وسيأتي تفسير الاستعاذة- يستعيذ بمعنى يحتمي، ويلتجئ، ويستجير بالله ﷻ من شر هذا العدو المهلك، ولهذا يقول (**أعوذ بالله من الشيطان الرجيم**) ولما كان هذا العدو شديد العداوة لابن آدم، فإنه لا يفارقه، فالشيطان لا يفارق ابن آدم حتى في صلاته، حتى في الصلاة يأتيك الشيطان ويوسوس لك، حتى عند تلاوتك للقرآن، يأتيك ويوسوس لك، ولهذا أمرنا ﷻ أن نستعيذ به من الشيطان الرجيم عند تلاوتنا للقرآن، فقال ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ۝٩٨ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٩٩﴾النحل، فأمرنا أن نستعيذ به من الشيطان الرجيم عند تلاوتنا للقرآن الكريم، حتى يدفع الله عنا شر هذا العدو المهلك.

وهذه الاستعاذة بالله من الشيطان الرجيم، جمهور العلماء يقولون إن موضعها يكون قبل التلاوة، وإن كان ظاهر الآية أنها تكون بعدها، وهذا قول داود الظاهري رَحِمَهُ اللَّهُ وجماعة من المتقدمين كأبي حاتم السجستاني والشعبي وغيرهما، قالوا: إن الاستعاذة تكون بعد التلاوة، ويُروى عن الإمام مالك، ولا يصح! لا يصح ما روي عن الإمام مالك أنه قال الاستعاذة تكون بعد القراءة، والصحيح من مذهب مالك وغيره من الفقهاء، أن الاستعاذة تكون قبل التلاوة، فقوله ﷻ ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴾ أي إذا أردتَ أن تقرأ القرآن، وليس المقصود إذا أتممت القراءة، خلافا للظاهرية، داود الظاهري أخذ بظاهر الآية.

ومما يدل على صحة ما ذهب إليه جمهور العلماء، وهو أن موضع الاستعاذة تكون قبل القراءة لا بعدها قوله تعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغۡسِلُواْ وُجُوهَكُمۡ وَأَيۡدِيَكُمۡ إِلَى ٱلۡمَرَافِقِ..﴿٦﴾﴾المائدة، متى نتوضأ؟ إذا قمنا للصلاة؟ لا، إذا أردنا أن نقوم للصلاة، كما قال ﷺ (من أتى الجمعة فليغتسل)[1]، عندما تأتي للجمعة تغتسل في المسجد؟! لا، يعني من أراد أن يأتي الجمعة فليغتسل.

الفعل الماضي يطلق ويراد به أحد ثلاثة معان:

١= يطلق أحيانا ويراد به الفراغ منه، يعني بعد الفراغ منه، كما فيقوله ﷺ (فإذا كبّر فكبِّروا) يعني تكبّر بعد أن يفرغ الإمام من التكبير، وهنا الفعل الماضي يكون في موضعه.

٢= وتارة يطلق الفعل الماضي ويراد به الشروع فيه، كما قال ﷺ (وإذا ركع فاركعوا) يعني إذا شرع في الركوع تشرعون في الركوع، ليس حتى يركع ويرفع فترفع أنت! المعنى الأول (إذا كبر فكبروا) يكون بعد الفراغ من التكبير، لكن لما قال (وإذا ركع فاركعوا) ليس المراد إذا رفع من الركوع نركع، وإنما المقصود أنه إذا شرع في الركوع نشرع في الركوع، وإذا رفع منه نرفع منه.

٣= والمعنى الثالث وهو الذي يراد به في هذا الموضع، أنه يكون بمعنى الإرادة منه، ﴿فَإِذَا قَرَأۡتَ ٱلۡقُرۡءَانَ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾ يعني إذا أردت، على تقدير حذف المضاف، إذا أردت قراءة القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم.

وإن كان الاستعاذة سنتكلم عنها بنوع من التفصيل، لأننا سنتكلم عن معنى الاستعاذة، ومعنى المستعاذ به، والمستعاذ منه، لأنك تستعيذ بالله من الشيطان.

[1] أخرجه البخاري (٨٩٤)، ومسلم (٨٤٤).

[عظمة الاستعاذة لا يمكن التعبير عنها]

فنبدأ بمعنى الاستعاذة، الاستعاذة كما تقدم الالتجاء، والاعتصام، والهروب، تهرب إلى الله ﷻ من الشيطان الرجيم، لأن الشيطان لا يمكن مقاومته، ولا يمكن مواجهته لأنه عدو خفي، ولأنه يعرف ما لا تعرف، فهو الذي أخرج آدم ﷺ من الجنة، ولا يزال إلى يومنا، عنده خبرة طويلة جدا مع العلماء والصالحين والأنبياء والرسل، عنده هذه الخبرة التي تساوي آلافا مؤلفة من السنوات إن لم تكن تعد بالملايين، فهو يحسن كيف يتعامل مع البشر، ولهذا فالإنسان لا يمكن أن يدفع عن نفسه شر هذا العدو إلا بالالتجاء إلى الله سبحانه وتعالى.

وعندما نقول إن الاستعاذة هي بمعنى الالتجاء والاحتماء بالله سبحانه وتعالى والهروب إليه، هذه مجرد تمثيل فقط وليست تفسيرا للكلمة، لأن كلمة الاستعاذة لا يمكن تفسيرها، ما يجد المؤمن في قلبه وهو ينطق هذه الكلمة، وهو يحتمي برب العالمين من الشيطان، ما يجده من العظمة في قلبه، هذا لا يمكن التعبير عنه باللسان، هناك مقامات وأحوال لا يمكن التعبير عنها، مثلا الخوف من الله، حب الله تعالى، تعظيمه، هذه أمور تكون في القلب، يشعر بها المؤمن، لكنه لو أراد أن يعبر عنها فمهما أراد أن يعبر عنها فإنه لم لا يمكنه أن يصور حقيقتها، وإنما يشعر بها من قامت بنفسه هذه المعاني، والأمور المعنوية.

إذا أردت أن تعبر عن الجوع مثلا، أو العطش، أو الخوف، فلا يمكن للسامع أن يفهم المعنى الحقيقي، وما تشعر به أنت إلا إذا جرب، الذي لم يجرب الخوف الشديد، والألم الشديد، هذا لا يمكنه أن يفهم المعنى، وإنما يفهم المثال فقط، لكن الواقع أن الاستعاذة عندما يستعيذ المؤمن برب العالمين، ويحتمي به ويطلب منه الحماية، وأن يجيره من هذا الشيطان، هذا أمر لا يمكن التعبير عنه بدقة، وإنما نعبر عنه بالمثال فقط، فنقول: هذا هو المقصود أن تلجأ إلى الله سبحانه وتعالى.

والاستعاذة تكون فيما يخشاه الإنسان وما يكرهه، وهناك اللياذة وتكون فيما يحبه الإنسان، تلوذ بفلان في الخير وتعوذ به فيما هو شر، كما قال المتنبي:

يا من ألوذ به فيما أؤمّله * وأعوذ به فيما أحاذره**

هو يلوذ به فيما يؤمله من الخير، ويعوذ به فيما يحاذره من الشر.

لا يجبر الناس عظما أنت كاسره * ولا يهيضون عظما أنت جابره**

فهذا معنى كلمة الاستعاذة، فلابد على القارئ إذا قرأ القرآن أن يقف عند معناها، أن تستعيذ بالله هو أن تطلب الحماية منه ﷻ.

وإلى لقاء آخر إن شاء الله، سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك.

وبارك الله فيكم، والسلام عليكم.